العرب
السبت 2020/02/29
السنة 42 العدد 11632

محمد مندور الناقد المعادي لطه حسين

محمد برادة يستكشف ملامح النقد العربي خارج أسوار الأكاديميا

شيخ النقاد محمد مندور واحد من الأسماء النقدية الكبيرة، التي استطاعت أن تخرج النقد الأدبي من قاعات المدرجات، إلى التفاعل مع الواقع وتشتبك مع كل ما يصدر من كتابات بغية تقييمها، ومع محاولاته التي لم تتوقف منذ رحلته إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه، إلى عودته إلى مصر، وانخراطه مع هذه الكتابات الجديدة. لكنه جوبه بهجمات شرسة.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

لم تلق جهود محمد مندور النقدية الاستحسان من معاصريه كطه حسين الذي أوفده في بعثة إلى فرنسا، بل هو الذي جذبه إلى دراسة الأدب، بعدما أعجب به في إحدى محاضراته التي كان يتردد عليها مندور حبا في الأستاذ.

لم يكن طه حسين وحده المعنف له ولكتاباته، فمندور في نظره "ليس ذا بال في الثقافة وليس له دور فكري هام في حياتنا الثقافية في هذا القرن"، أما كتابه "النقد المنهجي عند العرب" فوصفه بأنه "كتاب هايف"، نفس هذا الرأى تردد بصيغة أو بأخرى في سيرة الدكتور عبدالرحمن بدوي، "حياتي"، فهو الآخر لم يكن راضيا عن مندور واشتغالاته النقدية، بل قلل من معرفته بالفرنسية التي نقل منها إلى العربية الكثير.

النقد الدنيوي

يسعى الناقد المغربي الدكتور محمد برادة، في كتابه الصادر مؤخرا بعنوان "محمد مندور وتنظير النقد العربي"، لإعادة قراءة مندور ومنجزه النقدي، ووضعه في سياقه الحقيقي، باعتباره ناقدا دنيويا سعى للتحرر من قوالب النقد المدرسي، فمندور يعتبر ممثلا لاتجاه طلائعي في النقد العربي طيلة أكثر من عشرين سنة (1944–1966)، إلى جانب التأثير الذي لا يزال يمارسه بواسطة كتبه المقررة في المعاهد والجامعات.

يرى برادة أن كتابات مندور، تمثل الاتجاه الموازي لحركة النقد المدرسي، التي كان يقودها أساتذة الجامعة، باعتمادهم لعقود طويلة على المنهج اللانسوي، وعلى بعض من مناهج التاريخ الأدبي والسوسيولوجيا الوضعية. مقابل هذه الكتابات كانت ثمة حركة أخرى تحْرث أرض الواقع، بمواكبتها للإبداعات الجديدة في الشعر والرواية والقصة والمسرح، يمكن وصفها بالنقد الدنيوي المتحرر من القوالب المدرسية. وهو ما كان بمثابة إعلان صراع خفي بين حركة النقد التي تقودها الجامعة باعتبارها الحصن المتفرد بإضفاء الشرعية وتحديد مقاييس النقد ومناهجه، وبين التيار الذي نشأ خارج أسوار الجامعة، وضم بمعيته بعض النقاد استنادا على تجاربهم الإبداعية.

> كتابات مندور تمثل الاتجاه الموازي لحركة النقد المدرسي، التي كان يقودها أساتذة الجامعة لكن الأيديولوجيا أضعفت منجزه

الكتاب يتخذ من منهج نقد النقد أداة معرفية في قراءة محمد مندور، وفحص نتاجه النقدي، باعتبار نقد النقد هو المحفز "لبلورة طرائق إبداعية مستجدة، والضمان الحائل دون تجمد القوالب وسيادة المنوالية واجترار البلاغة المقننة". كما أن المؤلف يراعي في قراءته لهذا المنهج مفهوم النقد على كونه ليس مجرد شرح أو تفسير للنص، بقدر ما هو خطاب معين يتفاعل مع سجلات معرفية ويستثمر الخبرة الذاتية والشعورية؛ لينتج بدوره معرفة تتوخى تنْسيب الحقيقة وفتح النص على التأويلات الممْكنة".

هدف برادة من دراسته لمندور، باعتباره ذا تمثيلية ثقافية، هو البحث عن أزمة النقد ذاتها، التي لا يفصلها عن الأزمة الشاملة للمجتمع. لذا لم يدرس مندور من خلال كتاباته، أو بمعزل عن الشروط المتحكمة في المجال الثقافي، فمندور منذ عودته من بعثته أدرك بدوره ثقل الفعل المغير وسط "الشروط المتيحة" بتعبير بيير بورديو، أي جملة العناصر والمكونات والصراعات التي تتيح للفرد أن ينجز شيئا ما، لا حسب مشيئته أو تمنياته وإنما وفق تلك الشروط المتيحة. فجاءت الدراسة أشبه بدراسة تحليلية عن تاريخ مندور وسيرته الذاتية في مجالات عدة مثل السياسة والنقد الأدبي والشعر، وقراءة في أسباب تحولاته الثقافية والسياسية، وكيف تمت هذه التحولات الفكرية في مسيرة مندور النقدية من تأثيرية، وتحليلية ثم أيديولوجية. ومن ثم يتوقف عند علاقة مندور والمثاقفة، وتأثير الثقافة الفرنسية عليه خلال إقامته الدراسية في باريس (1930 –1939) وهو ما ظهر جليا في تأثيرات لانسون عليه.

في فصل "مندور والمثقافة أو المرحلة التأثيرية" لا يهتم برادة برسم صورة شخصية (بورتريه) لمحمد مندور وبسيرته اللدنية في تصوير علاقته بمجتمعه، أو حتى تقديم تفسيرات نفسانية لسلوكه ومواقفه، «اقتناعا بأن كل كتابة هي في جوهرها نتاج جهد وذكاء، وتستجيب لشروط مادية قابلة للتحليل»، وإنما انشغل باستكشاف مسار تكوين مندور وإضاءة مسيرة تعلمه واستخلاص العوامل الفاعلة والحاسمة في ذلك.

يقر برادة أن محمد مندور قبل سفره كان متسلحا بثقافة عربية واسعة وكان لديه اطلاع واسع على دواوين الشعر العربي القديم. وهذا لا ينفي عدم اطلاعه على النقد الغربي في هذه الفترة، بل كان ثمة نزوع لقراءة التراث وتقييمه وفقا لمقاييس الثقافة الغربية على نحو ما فعل العقاد مع ابن الرومي، وطه حسين مع أبي العلاء. وفي فرنسا كانت سنواته لتقليب جذوره الفكرية والاستقرار داخل ثقافة موسوعية. وقد ربط بين تأثيرات هذه المرحلة ونتاجه النقدي، فرأى أن بروز التكوين الثقافي الأكاديمي الغربي عليه، رغم إعلانه مراعاة الحقائق المتميزة للأدب العربي. حتى في مقالاته السياسية انعكست الأفكار الأوروبية عن الديمقراطية والليبرالية على كتاباته، وبذلك تكون هذه الثقافة الغربية صنعت لا وعْيه الثقافي.

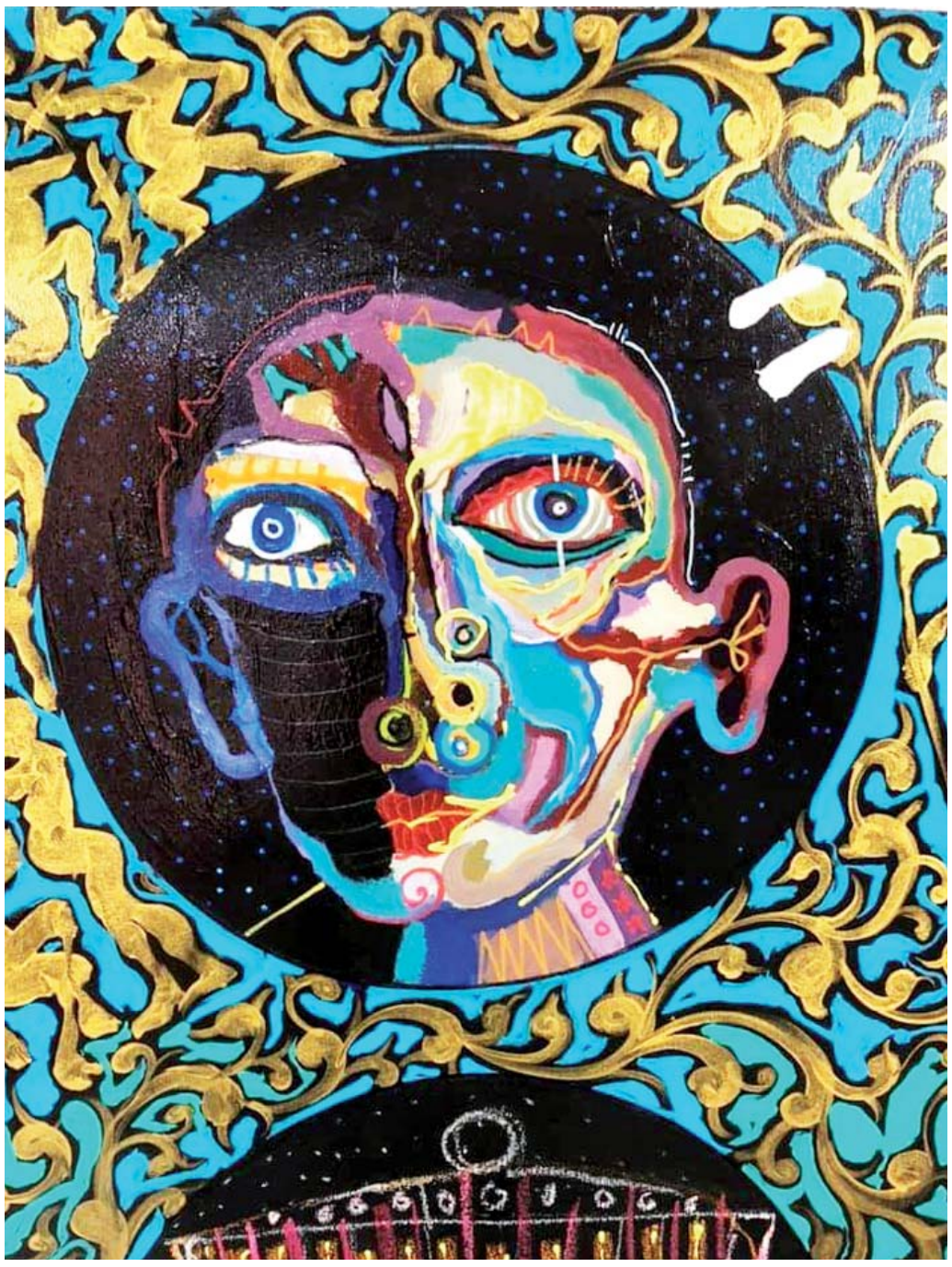

الناقد الدنيوي مختلف (لوحة للفنان بسيم الريس)

الانعكاس المتلقي

يتوقف برادة عند دراسة الحقل الثقافي في مصر، في الفترة ما بين 1936 و1952، وهي الفترة التي انخرط فيها مندور في المجال السياسي تاركا النقد الأدبي، بغية استكشاف الدوافع الحقيقية للتغيرات المتتالية التي عاشها مندور أو عرفها الحقل الأدبي المصري. وهو ما يعني دراسة العلائق والآليات المحركة لمجموع الحقل الثقافي، وهو ما يشير إلى تبني محمد برادة لتصور مفاده تبعية الأدبي الثقافي للسياسي.

وهو ما كشفه من تردد أصداء مصطفى كامل الوطني الرومانسي، وأحمد لطفي السيد العقلاني الأرسطي، في المحاولات الروائية الأولى على نحو ما أشار عبدالمحسن طه بدر، في إشارة إلى أن الفكر المصري الحديث بما في ذلك التجديد الأدبي، برز من تحت معطف أحمد لطفي السيد. دون التقليل من الدور الذي لعبته الجامعة المصرية آنذاك في إضفاء المشروعية داخل الحقل الثقافي المصري، ثم المجلات الأدبية المدعمة. كان لهذه العوامل السابقة الدور الكبير لأن يدْرج مندور ضمن مفهوم المثقف العضوي، بسبب انخراطه في الصراعات السياسية واتجاهه إلى التنظير المذهبي.

ومع ثورة 1952، سعى مندور لاستمرار نشاطه السياسي، وأعلن موقفه من الديمقراطية والحرية، فأصدر كتابه "الديمقراطية السياسية" (1952)، في الدفاع عن التعددية الحزبية، لكن الناصرية كسلطة وأيديولوجيا سارت في طريق صادم بأنْ ألغت الأحزاب، وهو ما كان إيذانا بعودة مندور إلى الكتابة الأدبية من جديد.

هذه التغيرات السياسية، إضافة إلى السفر إلى الاتحاد السوفييتي، جعلاه يكتشف الواقعية، التي دفعته إلى تعديل بعض آرائه. وقد بدأت تظهر سمات ذلك في تحليلاته الجديدة، التي لم تفارق ما دأب عليه في بداياته، باستثناء عنايته بالمحتوى والقيم الجديدة التي غمرت الساحة. فظهر اهتمامه بالعامل الاجتماعي – السياسي في دراساته للشعر. وقد كشفت هذه العودة إلى السياسة مع ممارسته للكتابة النقدية؛ أن كتاباته النقدية ملتزمة بقوة في الصراع السياسي – الأيديولوجي حتى غدت كتاباته انعكاسا متلقيا بعد أن كان انعكاسا مبدعا.

تفوقت دراساته في المسرح، على باقي دراساته للفنون الأخرى، كالشعر الذي جاءت دراساته عنه (في مجملها) دفاعا معتدلا عنه، وقد احتوت في بعضها على بعض الخلاصات العامة وقدمها كمسلمات وفرضيات مسلم بها. أما نتاجه في النقد الروائي، فهو محدود ولا يكاد يتجاوز نطاق المبادئ والملاحظات العامة.

بصفة عامة كما يقول برادة إن مندور الناقد ساهم أكثر من المبدع، في تجسيد التفكير الأيديولوجي السائد خلال حقبة تاريخية معينة. فمن خلال تنظيراته التي أخذت سمتًا أيديولوجيا استطاع أنْ يبلور حواشي أيديولوجية كانت تتشكل وتنمو ضمن شروط اجتماعية – اقتصادية، وبكتاباته كان يعبر عن رؤيته للعالم.

غلبة التأثير الأيديولوجي السلبي حوّل مندور إلى مجرد عاكس لمواقف يستخلصها من الأعمال الأدبية، واضعا في ذهنه نظرية المرآة. كما أن منهجية مندور المطبوعة بنزعة أرسطية ونوع من الوضعية الذرائعية، قلما ساعدته في النفاذ إلى الأعمال الأدبية بما لها من خصوصية وديناميكية، كما أنه لم يوفق في بلورة إطار نقدي نظري يستمد منه منهجيته ويطورها حسب الموضوعات المعالجة. فكثير من تفسيراته وتحليلاته للأعمال والظواهر الأدبية، اكتسبت طابع الارتجال أو الصدفة.

الثقافة في زمن كورونا

حسن الوزاني
كاتب مغربي

قد يَعتبر البعض الحديث عن الثقافة خلال هذه اللحظة الإنسانية المؤلمة ترفا وغير لائق بالطابع الدرامي لهذه اللحظة. غير أن الأمر لا يبدو كذلك. على الأقل كما تؤكده حالة الصين، منبع شبح فايروس كورونا الذي يأتي يوميا على مئات الضحايا. إذ يبدو مدهشا أن يستطيع الناس التأقلم مع الوضع الجديد عبر إقبالهم على المنتوج الثقافي، كتعبير عن استمرار الحياة. وذلك في خضم لحظة استثنائية، يتم خلالها الحجر على مدن بكاملها وعلى آلاف الناس، الذين يجدون أنفسهم مجبرين على الإقامة داخل بيوتهم لأيام لا يعرف أحد متى تنتهي.

والأكيد أن التهديد الذي يشكله الانتشار السريع لوباء كورونا لا يمكن، في جميع الأحوال، أن تنجو منه بعض الصناعات الثقافية التي تقوم على العرض المباشر. ولعل ذلك ما يعكسه، على سبيل المثال، إلغاء المعرض الدولي الفني باسِل، الذي كان من المفروض أن تحتضنه هونغ كونغ، والذي يشكل أحد أهم المواعيد الفنية على مستوى العالم.

كما يبدو طبيعيا أن يمس نفس التهديد السينما التي تشكل أحد مناطق قوة الصناعات الثقافية بالبلد، والتي كان من المفروض أن تجعل منها وتيرةُ تطور أرقام معاملاتها، الأولى، في أفق نهاية السنة الحالية، على مستوى الكون، مع إمكانية تجاوزها لهوليوود بتراكمها الكبير. وهي الوتيرة التي أبطأها، وإن كان ذلك بشكل مؤقت، إغلاق عدد من الأستوديوهات الكبرى والعديد من القاعات السينمائية، خصوصا خلال أيام العيد. وسيكون من نتائج ذلك تراجع مداخيل القاعات، التي جرت العادة أن تشغل أرقامها، خلال هذه الفترة، ثلاثين في المئة من مداخيل الصين خلال سنة بكاملها.

ولن يتوقف أثر التهديد هنا، إذ ستصل آثاره إلى بلدان أخرى كانت تعوّل على سوق السينما الصينية وعلى حجمها الكبير الذي يتجاوز الستين ألف شاشة سينمائية. ومن ذلك على سبيل المثال تأجيل ديزني لعرض فيلم "مولان" الذي تطلب إنجازه ميزانية ضخمة جاوزت المئتي مليون دولار.

كما يبدو واردا، في نفس السياق، أن تصل التهديدات إلى بقية الصناعات الثقافية القائمة على العرض، ومن ذلك المسرح والفنون الحية، والمتاحف وأروقة الفنون التشكيلية. وكلها كانت إلى حدود اللحظة موئلا للاستثمارات الكبرى. وذلك حال سوق الفنون التشكيلية، التي كانت تتصدر، إلى حدود هذه السنة، المشهد الكوني، بمداخيلها التي تشغل أربعين في المئة من مداخيل الأسواق العالمية، حسب المكتب الوطني للإحصائيات الصينية. وذلك بفضل التقليص من الرسوم الجمركية ودعم التظاهرات الكبرى في المجال.

في مقابل هذه المناطق المعتمة، التي تخص المنتوجات الثقافية القائمة على العرض المباشر، يبدو أن الصينيين يملكون القدرة على فتح نوافذ أخرى لممارسة حياتهم الثقافية، وإن كان ذلك من وراء جدران الحجر الصحي. ويبدو مذهلا، على سبيل المثال، أن تشهد الأيام الأخيرة ارتفاعا يهم بشكل خاص المنتوجات الثقافية، سواء القائمة منها على الاستعمال عن بعد، أو التي يتم تحميلها عن طريق النت.

ولعل ذلك ما يهم، على سبيل المثال، استهلاك ألعاب الفيديو. إذ سجل تحميل الألعاب مستوى قياسيا خلال الفترة المتزامنة مع انتشار وباء كورونا، وذلك بزيادة تصل إلى الثلاثين في المئة مقارنة مع نفس الفترة خلال السنة السابقة، كما تؤكد ذلك أرقام معهد نيكو المختص في المجال. ولعل هذا ما يشكل امتدادا لتجذر ألعاب الواقع الافتراضي ضمن ثقافة وعادات الشبان الصينيين. وهو ما يعكسه انتقال عدد مستهلكي هذه المنتوجات من الستين مليونا إلى الخمسمئة مليون مستهلك في فترة زمنية لا تتجاوز السنة الواحدة. ويجعل ذلك من الصين الأولى على مستوى العالم في المجال، من خلال حيازتها على ثلث المداخيل التي يتم تحقيقها على مستوى الأسواق العالمية.

وسيمتد نفس التطور إلى بقية المنتوجات الثقافية القائمة على التحميل، ومن ذلك الكتاب الإلكتروني والموسيقى. وهما المَجالان اللذان يحتفظان بحضورهما الخاص، حيث ناهز عددُ مستهلكي الكتاب الإلكتروني، قبل سنة فقط، الأربعمئة مليون مستعمل.

كما يبدو طريفا أن تتأقلم الكثير من القنوات التلفزيونية المختصة في برامج الواقع أو في مسابقات الغناء، ومنها قناة هونان الشهيرة، مع الواقع الجديد، عبر إمكانيات تسجيل المَشاهِد بشكل فردي، من داخل البيوت أو في الأستوديوهات.

لن يتوقف استغلال التكنولوجيا هنا. إذ أن كثيرا من الجامعات الصينية قد أطلقت برامجها للتعليم عن بعد، حيث يمكن لأي طالب أن يواصل دروسه انطلاقا من بيته، وإن كان خاضعا للحجر.

> انتشار الفايروس تسبب في كساد قطاعات ثقافية في المقابل انتعشت أخرى مثل قطاع الكتب الإلكترونية

ولا يبدو كل ذلك غريبا. إذ إن الصين تمتلك على الأقل مؤهلين قد لا تستطيع الكثير من الدول الجمع بينهما. الأول يكمن في توفرها على بنية هامة على مستوى تكنولوجيا التواصل والمعلومات التي تبقى مفتوحة على كل التطبيقات الممكنة، بما فيها الثقافية منها والتعليمية وغيرها. وهو ما يعكسه، على سبيل المثال، العدد الهائل على مستوى مستعملي النت بالبلد.

فيما يرتبط المؤهل الثاني برهان الصين على الثقافة، سواء باعتبارها صناعة مدرّة للأرباح أو الوسيلة الأفضل لدخول العالم. وهو ما تعكسه على الأقل الميزانية التي خصصتها الدولة للثقافة، خلال السنة السابقة، والتي تقارب التسعمئة مليون دولار. وذلك في الوقت الذي ما زالت فيه الكثير من وزارات الثقافة ببلداننا تقتات على فتات ما يتبقى.

كنتُ في الصين قبل أشهر كأستاذ زائر بكلية الدراسات الشرق الأوسطية ببكين، وهي التي كونت العشرات من سفراء البلد ومن باحثيه ومترجميه. وفوجئت بالتواضع الشديد لبنيات وتجهيزات قاعات دروس الكلية، بخلاف مظاهر الثراء الفاحش الذي تحرص عليه الكثير من مؤسسات بلداننا، سواء الغنية منها أو الفقيرة. فهمتُ حينها أن الاستثمار الحقيقي يجب أن يهم الإنسان وليس الجدران. أما الثقافة، فإذا توفرت مقوماتها وشروطها الحقيقية، فيمكن أن تمثل شكلا من أشكال مقاومة غول كبير لا يرحم، اسمه كورونا!

القراءة الإلكترونية تزدهر في الأزمة